الأدب
أو الانتاج الوجداني الجيّد

ما الإنتاجُ الوُجداني الجيّد ؟

على هذا السؤال يدور علم النقد ؛ وعلم النقد نفسه يقوم على علم البلاغة ؛ والغاية من علم البلاغة أن نتبيّن الخصائصَ الفنيّة في الإنتاج الوجداني من النثر والشعر . وتَبَيُّنُ هذه الخصائص هو الذي يمكّننا من الوقوف على حسنات القطعة الأدبية وسيئاتها . وبهذه الحسنات والسيئات المجموعة من القطع الأدبية المفروضة نستطيع أن نميّز بين شيئين :

— بين القطع التي تستحق أن تُضاف إلى مجموع النتاج الوجداني المَرْوِيّ عن العرب منذ أقدم الأزمنة التي اتصلت بها الرواية ؛

— وبين القطع التي لا تبلغ في الجودة ، بحسب المقاييس التي في أيدينا ، إلى أن تدخل في تراثنا الأدبي .

ثم إذا نحن رَجَعنا البصرَ في خصائص القطع الأدبية التي حكمنا بأنها من الإنتاج الوجداني الجيّد وجعلناها جزءاً من تراثنا الأدبي استطعنا أن نفضّل بعض هذه القطع على بعض .

والواقع أنه ليس في النتاج الأدبي قطع جِيادٌ وقطع رديئة . إن التراث الأدبي يتألّف من قطع جياد فقط ؛ وليست القطع الرديئة من الأدب أصلا . ولكن متى تُعدّ القطعة جيّدة ؟ وما أقلّ عددٍ من الخصائص نطلُبه حتى نعد القطعة المفروضة أدباً ؟

obeikandi.com

نحن في زمن تكثر التآليف فيه في كلّ مكان وفي كل فن من فنون المعرفة الإنسانية . والإنتاج الأدبي . في كل مكان . أكثر فيضاً من سائر فنون المعرفة (من مثل الرياضيات والفلك والكيمياء والموسيقى وعلم الآثار) . والسبب في ذلك واضح . هو أن العلوم الرياضية والطبيعية وما يجري مجراها علوم موضوعية ذوات قواعدَ ثابتةٍ مربوطة ببراهينها . فليس من المُكنة في كلّ إنسان أن يجرم على التأليف فيها . إن المؤلّف في هذه العلوم يَعرِف من تلقاء نفسه أين يقع الخطأ في ما ألّف أو جمع . أما في العلوم الإنسانية (في الأدب والاجتماع والفن الوصفي) فالمَدار على الأحكام النسبية بالإضافة إلى المكان والزمان وإلى ثقافة المؤلّف والقارىء . وهذه الأحكام تختلف عادة بين زمان وزمان ، وبين مكان ومكان ، ثم بين شخص وشخص في المكان الواحد والزمان الواحد . ان المؤلّف يستطيع أن يجادل بالألفاظ المركّبة والحجج الشخصية عن إنتاجه الرديء في ما يسمّيه هو أدباً أكثر مما يستطيع أن يدافع عن عمله الرديء في العلوم الرياضية والطبيعية .

* * *

والمألوف في التعريفات أنها مقبولة على أنها «كلٌّ» غيرُ خاضع للتجزئة . نحن لا نستطيع أن نقول في الهندسة مثلا : « ان هذا المربع مستطيل قليلا » ، ذلك لأن الشكل الرباعي الأضلاع إذا لم يستوف شرط التربيع كاملا فإنه لا يسمّى مربعاً أصلا . وكذلك نحن لا نسمّي الشكل الهندسي دائرة (أو محيطاً للدائرة على الأصح) إلا إذا كان خطاً دائراً متّصلا تبعد جميع النقاط فيه عن نقطة داخلية واحدة مفروضة بُعداً واحداً . فاذا اضطرب هذا الخط أو انثغر في نقطة واحدة بطل أن يكون محيطاً للدائرة وعاد خطاً منحنياً فقط .

على أننا في العلوم الإنسانية لا نفعل ذلك عادة . إننا نقبل ، فيما بيننا ، أمثال هذه الجمل : فلان أديب من الطبقة الثانية ؛ فلان سياسي قدير ولكنّه قليل الإخلاص ؛ فلان رسّام ولكنّه لا يحسن مزج ألوانه ! لقد كان علينا ألاّ نقبل أديباً من الدرجة الثانية ، وألاّ نعترف بسياسي قليل الإخلاص ، وألاّ

نُقِرَّ لرسّام لا يحسن مزج الألوان . ولكن بما أن البشر على درجات متفاوتة من الفهم ومن الاختبار ومن التثقيف ، فانهم يقيسون الجودة في الفنون الإنسانية بالاستعداد النسبي الذي في نفوسهم ثم يقبلون من تلك المحاولات الإنسانية ما يزيد في مستوى الجودة عمّا يستطيعون هم أن يصلوا إلى مثله . فالتسميات التي يخلعها هؤلاء على المحاولين للعلوم الإنسانية (من أمثال : أديب أو شاعر ، خطّاط أو رسّام ، مؤرّخ أو عالم اجتماعي ، سياسي أو اقتصادي) إنما هي تسميات بالنسب والإضافات إلى أنفسهم هـــم وإلى ما يحسنون من فنون المعرفة وما لا يحسنون ، وليست هي تسمياتٍ ذاتيةً في تلك الفنون نفسها .

أما الأحكام الهندسية فانها مقيسَةٌ بقواعدَ بديهيةٍ أو قابلة للبرهان في الأشكال الهندسية نفسها . هذه القواعد جُمعت في أيام اقليدس ، منذ اثنين وعشرين قرناً ، ولا تزال إلى اليوم لم تتبدّل ولم يخطر في بال أحد أن يبدّلها (فيما يتعلّق بالهندسية الإقليدية) . أما الذي تبدّل منها فعلا (كجواز التقاء المتوازيين في اللانهاية) فقد بطل أن يكون من هندسة أقليدس ثم أصبح تابعاً لفن قائم بذاته (هو النظرية النسبية) .

* * *

سيقول آخرون من الناس : « افلك ، يا فلان ، تريد أن تنظر إلى الشعر على أنه ذو قواعدَ كقواعدِ الرياضيات والطبيعيات ! » يجب أولاً أن نصحح لهؤلاء الناس جملتهم التي ساقوا فيها اعتراضهم ؛ إن الذي أريده هو أن يكون للشعر في نطاقه هو قواعدُ كقواعدِ الهندسة في نطاق الهندسة ، وكقواعد الكيمياء في نطاق الكيمياء ، وكقواعد النسيج في نطاق صناعة النسيج .

ان الإجادة المقدّرة بأصول ثابتة من العلم هي السبيل للحكم على الإنتاج الوجداني : هذه الإجادة في نظم الشعر هي التي تجعل من صاحب ذلك الإنتاج شاعراً ؛ فاذا لم تتوفّر له الإجادة الصحيحة المقيّدة بالأصول العلمية فهو بعدُ ناظمٌ فقط .

لنرجعْ الى حديث النقد الأدبي .

ان القطعة المفروضة في الإنتاج الوجداني تكون من التراث الأدبي :

١ ــ إذا كانت ألفاظها ملائمة لمعانيها المقصودة . سهلة المخارج من أجزاء الفم . عذْبَة الوقْع في الأذن . مألوفةً عند جمهور المثقفين .

٢ ــ إذا كانت تراكيبها صحيحة منطبقة على القواعد المقبولة في اللغة المروية من حياة الأمّة في النطاق الوجداني والمدى الاجتماعي .

٣ ــ إذا كانت تعالج غرضاً من الأغراض الملابسة لحياة الأمة . ثم كان ذلك الغرض . في زمن إنتاج القطعة الأدبية المفروضة ، مُلابساً أيضاً لعاطفة صاحب تلك القطعة ومُداخلا لجانب من جوانبِ تفكيره . في هذه الحال يصبح صاحب تلك القطعة . في قطعته تلك . ممثّلا لعبقرية قومه ومصوّراً لحياتهم في إطارٍ أدبي يؤثّر في النفس الإنسانية خاصة وعامة .

٤ ــ إذا كان فيها صناعة فنّية من اللجوء إلى أوجه البلاغة المختلفة حتى يُضفيَ ذلك عليها عنصراً من الخيال يجسّم حقيقتها في الأذهان ويصل بالأثر المطلوب من إنتاجها إلى أفهام الكَثْرة المطلقة من قوم صاحبها ــ على صور حقيقية أو متخيَّلة ــ وذلك على الرّغم من اختلاف درجات الاستعداد الشخصي في أولئك القوم ومن اختلاف درجات التثقيف التي هم عليها . ان الصور البلاغية في القطعة الوجدانية هي التي تدخل تلك القطعة في إطار التراث الأدبي .

٥ ــ إذا كان فيها نَفاذُ بصيرةٍ ، وكانت الآراء التي فيها توافق الواقع وتساير الاختبار الإنساني في تطوّره الخاص (في قوم صاحبها) أو في تطوّره العامّ (في معظم الأقوام) .

٦ ــ أن يكون فيها شعور يسمو على شعور سائر الناس في ناحية واحدة من النواحي على الأقلّ ؛ حينئذ تستطيع عين صاحبها أن تكتشف في الموضوع المادّيّ الذي تصفه ، كما يستطيع فكر صاحبها أن يلمح في الموضوع المجرّد الذي يعالجه . ما لا يستطيع غيره أن يكتشفه أو أن يلمحه بنفسه . بهذا ينفرد صاحب القطعة الوجدانية عن كثيرين من أنداده ويصبح خليقاً باسم أديب .

٧ – أن يكون فيها وعيٌ للصناعة الآلية فلا يفارق صاحبها الأصولَ التي يسير عليها أمثل تلك الصناعة . وكذلك يجب أن يكون فيها استواء في العمل الفنيّ فلا يكون فيها تفاوتٌ أو اختلاف في مراتب الجودة ، أو أن يكون فيها اضطراب يخرج بها عن حد الجودة .

٨ – أن يكون صاحبها مُلمّاً بالفنون المتّصلة بفنه المخصوص . ان الشاعر مثلا « ليس مزخرفَ جُمَلٍ بالكلمات » ، ولكنّه صاحب صناعة يتناول أغراضها من طريق الحياة ؛ فعلى الشاعر أن يكون ملمّاً بجوانب الأغراض التي يتناولها في شعره . ليس من الضرورة أن يكون الشاعر عالماً بالفلك والتاريخ ، ولكنّ عليه إذا تناول غرضاً من الفلك أو التاريخ ، أو إذا هو مسّ ذلك الغرض مسّا ، أن يكون ملمّاً بذلك الغرض على الأقلّ فلا يأتي به على غير وجهه فيفسدَ الصورةَ الشعرية التي يريد أن يحملها إلى أذهان الناس أو يُعمّيَها على أفهامهم .

٩ – أن يكون فيها رسالة يشعر الاديب أنه يؤدّيها على وجه من الوجوه المحمودة ، ذلك لأن لكلّ عمل – في نطاق عالم الإنسان وفي نطاق عالم الطبيعة الجامدة أيضاً – غايةً تجعل الإنسان يدرك في نفسه على الأقل أنه قد أصبح بعدَ عمله هذا أفضل مما كان من قبل . والمقاييس التي تُقوّم هذه الرسالةَ مأخوذة من حياة المجموع الصغير الذي يعيش فيه الأديب ثم من حياة المجموع الكبير الذي يعيش فيه قوم ذلك الأديب .

١٠ – أن يكون فيها أسلوب خاص هو الأسلوب الذي يتميّز به صاحبها في تاريخ التراث الأدبي . إذا كان ناظم الشعر يطبع ما ينظمه على أساليب غيره ثم لا يخرج بعد ذلك بأسلوب خاص به تُعرف به أشعاره عند تطبيق أصول النقد ، فليس خليقاً أن يقال له شاعر ، لأنه يكون عندئذ صورةً لشاعر آخر هو أحق منه بهذا الاسم .

وهنا يعترض النفر الآخرون من الناس مرّة ثانية فيقولون :

ولكن . ما مقام العنصر الإنساني والطابع الشخصي في الأدب ؟

وأنا هنا أيضاً أحب أن أصحح الجملة التي سيق فيها الاعتراض الثاني ؛ انهم يتقصدون أن يقولوا : ما قيمةُ الاختبار الفردي في الأدب ؟ إن هذا الاختبار الفردي لا قيمةَ له أبداً ما لم يندرج في جانب من جوانبه على الأقل في القاعدة الثالثة من القواعد العشر السابقة .

حينما نقول : « غابة » ، فاننا نعني شجراً كثيراً من نوع واحد نابتاً نباتاً طبيعياً أو نباتاً صناعياً قديماً . فاذا رأينا رجلاً قد زرع في حديقة بيته شجرة أو عشر شجرات أو أقل من ذلك أو أكثر ، فاننا لا نسمّي تلك الشجرات « غابة » !

الرجل الذي نظم قصيدة واحدة لا نسمّيه شاعراً . والمقطوعة الطويلة التي يرد فيها بيت جيّد أو بيتان جيّدان لا نسميها قصيدة . حتى الجُمَلُ التي تأتي عفواً على أحد أوزان الشعر ، فاننا لا نسميها أبياتاً .

وكذلك حينما تخطر لرجل صورة غامضة ثم يعبّر عنها تعبيراً غامضاً (إذ لا يمكن أن يكون التعبير عن الصورة الغامضة إلا تعبيراً غامضاً) أو تعبيراً يدّعي هو أنه يفهمه ، ولكن لا يفهمه أحد سواه ، حتى أولئك الذين رُزقوا حظاً من الفهم والعلم ، فاننا لا نستطيع أن نعد هـــذا التعبير من الأدب بحجة أن صاحبه قد توهّم أنه بتعبيره الغامض عن الصورة الغامضة في ذهنه ينتج أدباً .

ان هذا الكلام يقودنا إلى سؤال واضح :

ما موقف النقد العربي من قسم من الإنتاج الوجداني الحديث الذي يسمّيه أصحابه شعراً ؟

يجب أن أبدأ جوابي هنا بملاحظتين :

(أ) في الشعر العربي منذ الجاهلية قوم ادّعوا الشعر ولم يقرّ لهم أحد بذلك (كما أن نفراً من الناس ، منذ أيام اليونان الإغريق ، قد ادّعَوْا أنهم كانوا علماء في الكيمياء ، وأنهم كانوا قادرين على أن يحوّلوا المعادن الخسيسة كالرصاص والنحاس إلى معادنَ شريفةٍ كالفضة والذهب ، ولكننا نحن لم نُقرّ لهم بذلك . فلا دعواهم المعرفة بصناعة الكيمياء ولا ورود ذكرهم في كتب

العلم والتاريخ كان مبرراً لأن يجعل منهم علماء كيماويين) . فهؤلاء الذين يطبعون الكلام على شكل الشعر لن يُسمَّوا شعراءَ كما لم يُسمَّ أولئك الذين ادّعوا علم الكيمياء كيمائيين !

(ب) في عالم الطبيعة أمثلةٌ أو نماذجُ للموجودات ؛ وأعيان الموجودات تتكرّر في عالم الطبيعة على تلك الأمثلة لا يفارق كل نوع مثاله المخصوص به في العادة. غير أنه قد يطرأ طارىء على نوع من الموجودات فيُخرجُ (ذلك الطارىء) من أحد أصول ذلك النوع فرعاً أسمى من أصله . من هذا الجنس العباقرة . وفي أحوال كثيرة يطرأ الطارىء فيَخرجُ فرعٌ أدني في سلّم التطور الطبيعي من أصله فيكون في العالم أولئك المشوّهون . وسواء أكان التشويه ظاهراً أو غير ظاهر — وهو مظهر لقاعدة طبيعية ليس للإنسان يد فيها — فان آثاره تكون دائماً ظاهرة . هذه الآثار الجديدة والغريبة على كلّ حال تَمثُلُ أمام عيون الناس ؛ وكلّما كان الإنسان أقرب في التشويه الباطن في نفسه إلى تلك الصورة الشوهاء ، اتّسقت تلك الصورة الشوهاء مع نفسه . وإلا فكيف نفسّر عمل الرجل الذي يمر بصورة من ريشة روفائيل أو بتمثال من إزميل ميكالانجيلو فلا يُلقي إلى أحدهما بالاً ثم هو يدفع ألوفاً ومئات الألوف ثمن قطعة من النسيج عليها خطوط ولَطَخات من ألوان متنافرة ليعلّقها في مكان من بيته قريب من عينيه . لا ريب في أن النتاج المشوّه في الفن والصناعة وفي النثر والشعر نتيجة لتشويه في نفس صاحبه (وأحب من القارىء أن يحمل كلمة التشويه في هذا الفصل من الكتاب على الدلالة على اختلاف أحد الفروع عن الصورة المخصوصة بأصله لا على المعنى الذي يحمل تجريحاً) .

لما قال مسلم بن الوليد في وصف الخمر :

سُلّتْ فسُلّت ثم سُلّ سليلها ... فأتي سليلُ سليلِها مسلولا ،

قال له زميله وصديقه أبو نواس : « والله ، لو وقفتَ عارياً في الأسواق تَرْجُمُ الناس بالحجارة لكان ذلك أحسنَ لك من هذا ! »

وكلّ الناس تمر بهم غَفَلات من التشويه ، كما اتّفق لمسلم بن الوليد .

وقد وقع في مثل ذلك أيضاً أحمدُ شوقي لما قال في ملوك مصر من الفراعنة :

وتاجٍ من فرائده ابن سيتي ، ومن خرزاته خوفو ومينا !

ولم يفطن إلى أن لفظة « خرزاته » قبيحة ، على الرغم من أنها وردت في الشعر الجاهلي في قول القائل « خرزات مُلكٍ » .

غير أن هذا التشويه اليسير العارض يُوجبُ النقد على اللفظة والبيت ولا يوجب الحكم على الشاعر .

ولكننا أحياناً نجد مثل هذا التشويه في بعض الإنتاج الوجداني وُكْداً وُمتكأ لا يكاد صاحبه يتخلّص منه (من التشويه) ، فحينئذ ننتقل من النقد على اللفظة والبيت إلى الحكم على الشاعر . ومن الإنصاف أن نقول إن أصحاب هذا الجنس من القول يحبون أن يعبّروا عن آرائهم وعن الصور التي في أذهانهم رمزاً . إلا أن الرمز نفسه ، وهو الاستعارة البعيدة المتطرّفة ، يحسن في الجملة بعد الجملة أو في البيت بعد البيت ، ثم في القطعة بعد القطعة أو في القصيدة بعد القصيدة . وأما أن تكون القصيدة مرصوصةً بالمرامز (أو الاستعارات البعيدة المتطرّفة) فأمر خارج عن سنّة العرب وعن منهاج العقل جملة . وأحب أن أذكر هنا أن كلمة « مشوّه » ليست اختراعاً لي . ولكنّهم في اللغة الألمانية يطلقون على طريقة الرسم التي تخالف السنّة المألوفة في الرسم (التي لا تحاول النقل عن الطبيعة ولا تحسين الطبيعة ، بل تكتفي بأن يلقي الراسم على النسيج الصورةَ كما تتراءى لـــه في خيالـــه المعوجّ) اسم « الفن المشوّه » Entartete Kuenst ، ويذكرون (أو كانوا يذكرون في أيام الحكم النازي) أن هذه الطريقة من صنع اليهود حتى يشوّه اليهود أذواقَ الشعوب في الفن كما شوّهوها في السياسة والاقتصاد .

كنت مرة في المكتبة فوقفت أمام قسم الدواوين ثم تناولت منها بضعة دواوين تسمّى حديثة وقلّبت صفحات بعضها تقليباً يسيراً ، من غير أن أقصد التقصّي والتفتيش ، وأكتفي من كلّ ما قرأت بالكلام التالي (ولا أحسبه أكثر الأقوال تطرّفاً واعوجاجاً) :

نبأ عن شعة أمرعت
في الثنايا نبأ نضر
نبأ عن ميسة الأرض في
سوفها والله يفتكر .

* * *

لا ضرورةَ إلى ذكر صاحب هذا الكلام لأن المقصود هنا « ما قيل » لا « من قال » . قد أُعْمِلُ أنا فكري ، أو تعمل أنت فكرك ، في استجلاء المعنى الذي قصده صاحب هذا الكلام ثم نصل إلى ما قصد أو إلى قريب مما قصد . ولكنْ من احترام العقل أن نوفّره لمهامّ غير هذا الكدّ في ما لا طائلَ تحته ولا جدوى منه ولا فائدة فيه ولا معوّل عليه ولا نفع معه ثم لا سبيل إليه .

* * *

ونخص الآن أبا تمام بكلمة ، ما دامت هذه الملاحظات ستكون مقدّمة في دراسة لحياته ولشعره .

أبو تمّام شاعر على المذهب الشامي مغرم بالتصنيع (تكلّف أوجه البلاغة) وقل أن أخلى بيتاً (تركه بلا وجه من أوجه البلاغة) ، ثم هو كان يغوص على المعنى البعيد ويسوقه أحياناً في اللفظ العَسِر ثم يُثقله بالتكلّف اللفظي. غير أن أبا تمّام كان جادّاً في ما يفعل . وهو لم يفارق في ذلك مألوف العرب . وكثيراً ما كنت أنا أستغرب اللفظة في شعره فأرجع إلى القاموس فأرى أنه قد استعمل تلك اللفظة في المعنى الذي هو لها في وضعها اللغوي في أيامه أو قبل أيامه . ومع ذلك فان النقّاد قد حملوا عليه مَن أجل هذا التطرّف القليل حملاتٍ كثيرةً وتحاملوا عليه ثم حملوا عليه من اللوم فوق ما يحتمله ذنبه في ذلك . وبعد فان لأبي تمّام كثيراً مألوفاً أحسن فيه إلى جانب ذلك القليل المتطرّف الذي أساء فيه .

من أجل هذا لا نرى المسلك إلى ديوان أبي تمّام أيضاً سهلا ، ولا النظر فيه هيّناً . اننا نحتاج في تفهّم شعر أبي تمّام عادة إلى دورة عقلية لا تستقرّ على معنى

من معاني أبي تمّام الخاصة قبل أن تستعرض ما تستوعبه من اللغة والاجتماع والفلسفة والأدب . ثم لا يفي ذلك بما تريد فترجعُ أدراجك لتستأنفَ النظر في الاستنباط والتخريج ؛ فاذا أنت فعلت ذلك كلّه كنت أمام شعر أبي تمّام حبيب بن أوس كما قال ابن الرومي في وحيدَ المغنّيةِ :

فَهِيَ العيشُ ما يزال متى استُعْـ . . . . . رِضَ يُملي غرائباً ويَزيد !

ويلاحظ القارىء أنني قد تبسّطت في شرح الأبيات . سواءٌ منها تلك التي هي من باب الاستشهاد في أثناء الدراسة وتلك التي جُمعت في المختارات . وذلك ، فيما رأيت ، لسببين :

السبب الأول : ان هذا الكتاب سيقع بين أيد كثيرة ، كما هي الحال في شأن كل كتاب . فاذا كان الأدباء والمعتنون باللغة والأدب سيجدون فيه عدداً من الشروح هم في غنى عنها ، فان هذه الشروح ستكون مفيدة جدّاً للناشئين في الأدب وللذين هم على عتبة الدراسة فيه .

السبب الثاني : ان شعر أبي تمّام في ذاته يحتاج إلى عدد من الشروح : الكلمات التي تحتاج إلى الشروح في شعر أبي تمّام كثيرة ، والتراكيب والمدارك وأوجه البلاغة والاشارات التاريخية كلّ هذه تحتاج في ديوان أبي تمّام إلى شروح وتحتاج أحياناً إلى تبسّط في الشرح .

ومع أن الأبيات المستشهد بها في ثنايا الدراسة ، مع اعتبار المكرّر منها أو التي ليست لأبي تمّام أيضاً ، لا تنقص عن ثلاثمائة بيت ، فانني قد ألحقت بهذه الدراسة خمس قصائد تامّة تقرب أبياتها من مائتين وخمسين بيتاً .

ولقد حرَصت على أن تكون هذه القصائد المختارة تامّة لأنها في الدرجة الأولى قصائد لأبي تمام مشهورة جدّاً ، إن لم تكن أشهر قصائد أبي تمّام كلّها . ثم ان أبا تمام يتصرّف في أثناء القصيدة تصرّفاً مختلفاً ، فلا يستطيع الدارس أن يستجلي خصائصه تامّة في القصيدة إلا إذا كانت تلك القصيدة أمامه تامّة . لقد كان من الضروريّ ، على هذا الأساس ، أن يكون أمامنا ديوان أبي تمّام كاملاً (كما يحسن أن نفعل ذلك في دراسة كل شاعر آخر) ، ولكن لا بد في كلّ

دراسة من الاختيار والتخيّر ، ثم ان القارىء يستطيع ، إذا أراد ذلك أو إذا احتاج إليه ، أن يَرْجِعَ بنفسه إلى الديوان فيبلغَ ما شاء من أمنيته .

وبعد ، ان شعر أبي تمّام في الحقيقة مُتعة للعقول المثقّفة بمعانيه وبصناعته اللغوية . وأنا لا أنكر الطريق الوعر الذي يُجْهِدُ القرّاءُ فيه أنفسَهم إذا أرادوا أن يتنزّهوا في هذا الفردوس الغريب . ثم أن ما نراه اليوم من هذا الأدب الخفيف الذي يُدفع إلى الأسواق في الأغلفة الملوّنة يقتضي أن يُوازَن بدراسات لشعراءَ من نمط أبي تمّام . لقد قيل منذ زمن بعيد : أن السكّر مادة حلوة لذيذة في الفم وفيها أيضاً شيء من الغذاء ، ولكنّه لا يكفي لحفظ الحياة .

ان الأدب الإنشائي اللّماع قد يفيد في استجلاب النعاس قبل وقت النوم الطبيعي عند نفر من الذين اضطربت طبيعة النوم فيهم ، وقد يدغدغ خيال الذين يحبّون أن يَحْيَوْا على مائدة خيالهم وعلى الانفعال في أعصابهم أو بتحديث أنفسهم بالأمانيّ التي لا يستطيعون أن يحقّقوها في حياتهم العادية ، ولكنّه لا يصلح للذين استوت فيهم الطبيعة الإنسانية وملكوا أعصابهم في يقظتهم ومنامهم وروّضوا خيالَهم على الاحتكاك بحقائق الحياة . ان الذين يريدون أن يدخّنوا لفافة من الأدب حتى يُغرقوا همومهم الكبيرة عندهم هم ، والتي لا قيمةَ لها في حقيقتها هي ، لن يصبروا على قراءة هذا الكتاب لأنهم لا يستطيعون الصبر على شعر أبي تمّام وعلى الشعر الذي هو من نَجْرشعر أبي تمّام. يكفي هؤلاء — إذا كانوا يصرون على موقفهم من الأدب ومما هو الأدب — أن يكتفي أحدهم ببضعة أبيات من الأبيات المشهورة لعمر بن أبي ربيعة أو لأبي نواس وألا يجاوزوا هذه الأبيات إلى غيرها أيضاً . يجب نحن أن نذكر أن الكفاح هو قانون الحياة ، وأن « الأجر على قدر المشقّة » أساس صحيح لمواجهة الحياة . ان الذي يعرف خمسمائة كلمة من لغة قومه لا يستطيع أن يدرك من حقيقة أدبهم وجماله ما يدركه الذي يعرف عشرين ألفاً . والذي لا يعرف إلا لغة واحدة لا يستطيع أن يدرك الحقيقة والجمال في عقليات الأقوام المختلفين كالذي يعرف لغتين أو ثلاث لغات .

ان العقل لا يعرف المذاهب الاشتراكية المألوفة عند الذين لا يعرفون حقيقة الاشتراكية . نحن نستطيع أن نوزّع على المحرومين ، وعلى غير المحرومين أيضاً ، خُبزاً ولِباساً وأراضيَ وبطاقات لحضور الحفلات التمثيلية ولركوب الطائرة ، ولكنّنا لا نستطيع — مع الأسف — أن نوزّع تذوّقاً أدبياً وإدراكاً عقلياً وثقافة فنّية على الناس ، ولا نحن مستطيعون أن ننقل ما نملكه أحياناً من هذه إلى أولادنا كما ينقل الأغنياء أموالهم وأملاكهم وأمجادهم الدنيوية إلى وارثيهم . لا سبيل لك إلى فهم الهندسة إلا إذا درست الهندسة كما يجب أن تُدرس الهندسة ، وكذلك لا تستطيع فهم الشعر إلا إذا درست الشعر كما ينبغي أن يُدرس الشعر. ان الطبيب قد يضع لك الدواء في غلاف من السكّر : إن عمل السكر في غلاف الدواء أن يقنعك بأخذ الدواء ؛ وأما الذي يشفيك فهو الدواء نفسه . أما إذا كنت تستطيع أن تأخذ الدواء المرّ بلا غلاف من السكر فاعلم عندئذ أنك لستَ مريضاً ، لأن المريض هو الذي لا يمكن أن يبرأ من مرضه .

أريد أن أقف هنا عن ضرب الأمثلة وأن أتقدم معك إلى دراسة أبي تمّام على الأسلوب المألوف في الدراسات الأدبية التي ترمي إلى كشف جانب من الحياة الإنسانية أو تثبيت حقيقة من الحقائق الفكرية . وأنا على مثل اليقين أن في الفائدة الحقيقية متعةً حقيقية أيضاً .

٣ — ٥ — ٦٤

أبو تمّام

جاسم

كان على يمين الطريق الأعظم الذي كان يمتدّ بين دمشق وطبريّة بلدة صغيرة تدعى جاسم. هذه البلدة كانت تبعد عن دمشق ثمانية فراسخ، كما ذكر ياقوت[1]. وهي من كور حوران في كورة الجَولان أو الجيدور، والجولان والجيدور كورة واحدة. وزاد المقدّسيّ في التفصيل فقال[2]: «وتأخذ من دمشق إلى الكسوة بريدين، ثم إلى جاسم مرحلة، ثم إلى فيق مثلها، ثم إلى طبرية بريدا»[3].

ويبدو أن جاسم هذه هي التي كانت تقع على الدرجة الأربعين من خطوط الطول وعلى نحو الدرجة ٣٦ والدقيقة ٤٠ من خطوط العرض. على أن هذه تبعد عن دمشق مسافة تختلف عمّا قدّره ياقوت كثيراً[4]. ثم اننا لا ندري ما قصد الأصفهاني بقوله[5] عن أبي تمّام: «إن مولده ومنشأه بناحية منبج بقرية

---

(١) ياقوت ٢ : ٨

(٢) أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (ليدن ١٨٧٧) ، ص ١٩٠ .

(٣) هذه مسافات تعرف بالتقريب (راجع تاج العروس ٢ : ٢٧٢، ٢٩٨).

(٤) انظر موقع جاسم على الخارطة في :

Al - Muqaddasî, Blanches VIIa et VII b (pp. 160 - 161).

تقع جاسم على نحو ٣٢ كيلومتراً من فيق ، وعلى نحو ٧٥ كيلومتراً جنوب دمشق ، وعلى نحو ٣٥ كيلومتراً شمال أذرعات .

(٥) الاغاني ١٥ : ٩٦ (بولاق)

يقال لها جاسم » . ألعلّ هنالك غير منبج التي تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة حلب ؛ أم أنّ هنالك غير جاسم التي تقع في حوران ، إلى الجنوب الشرقي من دمشق ؟ أو لعلّ الأصفهاني وَهِمَ فأراد أن يجعل مولد أبي تمّام قريباً من مولد تلميذه البحتري ، والبحتري كان مولده في منبج[1] .

وكان أهل أبي تمّام ينزلون بجاسم وبعيجاء ؛ وعيجاء أيضاً من قرى حوران[2] .

في جاسم

كان رأس الأسرة التي خرج منها أبو تمّام رجلاً نصرانياً اسمه تدوس العطّار[3] . ولهذا الاسم قراءات مختلفة : تدوس ، تدرس ، ندوس الخ ؛ لعلّ أقربها إلى الصواب ثَدّوس (ثاذوس) المجزوءة من ثيودوسيوس اليونانية في الأغلب[4] . وهكذا يبدو أن ثدوس هذا كان من الجالية الرومية (اليونانية ، البيزنطية) التي كانت في الشام (سورية) قبل الفتح الإسلامي ؛ أو أنه جاء إلى الشام بعد ذلك .

وينكر نجيب محمّد البهبيتي[5] أن يكون أبو تمّام يوناني الأصل ثم يرى أنّه عربيّ صريح . أما نصرانية أبي تمّام فلا يستغربها البهبيتي في أول الأمر ، لأن أبا تمّام — فيما يرى البهبيتي — نشأ في طيّء ، وطيّء عنده « هذه القبيلة الوثنية النصرانية اليهودية المسلمة ذات الاتّصال الوثيق بالفرس والروم في الجاهلية

---

(١) ياقوت ٣ : ٧٥٠ .

(٢) ياقوت ، تحت عيجاء (طبعة مصر ٦ : ٢٤٥)

(٣) أخبار أبي تمام ٢٤٦ ؛ وفيات ١ : ٣٣٤ .

(٤) كما قرأها مرغوليوس (Enc. Isl I 109) ؛ أو ثديوس، كما قرأها رتر (Enc. Isl. new ed. I 153) ثم راجع GAL I 83 — ونحن اليوم نقول « قسطة » مجزوءة من قسطنطين ، وثيو مجزوءة من ثيودوسيوس . وفي القاموس (٢ : ٢٢١) : سدوس (بضم السين وفتحها) رجل طائي .

(٥) أبو تمام الطائي ، الصفحة (و)

والإسلام »[1] . بعدئذ يصرّ البهبيتي على نسبة أبي تمّام إلى طيّء دماً وولادة، ويرى أن نصرانية أبيه لا تتعارض مع طائيّته ، وهو يعتذر عن ذلك بقوله[2] : « فقد رأينا من قبل كيف كانت النصرانية في طيّء وكيف بقيت فيهم بعد الاسلام » . وأخيراً ، بعد أن يجادل البهبيتي في عشر صفحات كبيرة عن نصرانية أبي تمّام وطائيته يعود فينكر أن يكون أبو تمام أو والده نصرانيين ويقول[3] : « ودعك من نصرانية أبيه ، فما كانت الا من افتراء خصوم أبي تمام » .

ان البهبيتي ، في ذلك كله ، قد بذل جهداً مُضيّعاً : لقد أراد أن يغمس قبيلة بأسرها في النصرانية وفي الحضارة اليونانية ، قبل الاسلام وبعده ، ليزيد شخصاً واحداً في العرب ، وبعد فإنه نقض بعد صفحات ما كان قد غزله. ثم إنه لم يفعل أكثر مما كان الاب لويس شيخو اليسوعي قد حاول فعله قبل نصف قرن من الزمن[4] .

مولده

ولد ابو تمام حبيب بن ثدوس العطار في الثلث الاخير من القرن الثاني للهجرة . وقد روى الانباري عن تمام ابن الشاعر[5] ان ذلك كان سنة ١٨٨هـ ؛ وعدّد ابن خلكان[6] غير عام ١٨٨ اعوام ١٧٢ ، ١٩٠ ، ١٩٢هـ .

اما ابن عساكر فاعتمد[7] السنة ١٨٨ وشك في السنة ١٩٠ ؛ والتاريخ الاول احسن انتظاماً في ترجمة ابي تمام ، وأكثر اتساقاً مع حوادث حياته .

---

(١) أبو تمام الطائي ٢٨ .
(٢) مثله ٢٩.
(٣) مثله ٦٢ .
(٤) شعراء النصرانية بعد الاسلام ٢٥٦-٢٥٩ .
(٥) نزهة الالباء ٢١٤، ٣٢٥ .
(٦) وفيات ١ : ١٥٢ ؛ مطبعة الوطن ١ : ٢١٧ .
(٧) تهذيب التاريخ الكبير ٤ : ١٨، ٢٦ . راجع في مولد ابي تمام ايضاً اخبار ابي تمام ٢٧٢ ؛ هبة الأيام ٩ ؛ ياقوت ٢ : ٨؛ اعيان الشيعة ١٩ : ٤ الخ.

في دمشق

ثم بدا لثدوس العطار — لسبب من الاسباب — ان يترك جاسم وينتقل الى دمشق . فلما نزلها افتتح حانوت خمر — صنعة كانت محصورة في غير المسلمين وغير العرب — وارسل ابنه حبيباً يشتغل عند حائك (وفي رواية قزّاز — بائع قز وهو الحرير) .

نشأ حبيب وشب في دمشق ؛ ورأى فيها قوماً يحْنون عليه. فلما بلغ سناً تقرب من سن الرشد ، وبدأت مواهبه بالظهور اعتنق الاسلام واصبح شديد الحماسة في الدفاع عنه ، واشد حماسة في مهاجمة اعدائه . ويكفي ان تلقي نظرة واحدة على قصائده في مدح الخلفاء لتعلم ان اسلامه كان وطيداً متيناً ، وانه لم يعتنق الاسلام حباً في اجتذاب الدنيا اليه[1] . ويلوح لنا أنه اسلم وحده وبقي اهله على دينهم ، كما يلاحظ في قوله[2] :

نأيت ، فلا مالاً حويتُ ، ولم أُقِمْ ... فأُمتَعَ ، اذ فُجّعت بالمال والاهل[3] .

بخِلْتُ على عِرضي بمـا فيه صَوْنه ... رجاءَ اجتناءِ الجود من شجر البخل .

عَصَيت شبَا حزمي لطاعة جيرة ... دعتني الى ان افتح القفل بالقفل[4] .

ويلفت من نظرنا ورود كتاب عليه بنَعْي أحد اهله ، وكان ذلك الكتاب

---

(١) أمراء الشعر ١٤٤ .

(٢) ديوان خ ٤٢١ .

(٣) كان من الاحزم أن أبقى مع أهلي ، ولكنني فارقتهم (سافرت الى مصر) وأنا اطمع بنيل الغنى من أيد بخيلة.

(٤) عصيت شبا (حد) حزمي (أي : تخليت عن إرادتي في متابعة السفر) لطاعة جيرة (تنفيذاً لرغبة أهلي) الى أن أفتح القفل (أتغلب على الصعاب وأنال الغنى) بالقفل (بالرجوع الى بلدي) . — ورد التعبير « أفتح القفل بالقفل » بضم القافين في شرح الخياط (ديوان خ ٤٢١) ، وشرح شاهين عطية (بيروت ١٨٨٩ ، ص ٣٧٧) وعند البهبيتي (أبو تمام الطائي ٨٩) ، ولم أجد لذلك وجهاً فاخترت أن أجعل القفل الاولى بالضم بمعنى الاداة من الحديد يغلق بها الباب (كناية عن الصعاب وانسداد باب الرزق) وأن أجعل الثانية بالفتح من قفل قفلا وقفولا بمعنى رجع .

موشحاً بالسواد[1] . ثم ان ابا تمام غير اسم والده فجعله « اوساً »[2] ، فما يدرينا اذا كان قد غير اسمه هو ايضاً ؟

في حمص للمرة الأولى

وكان لا بد لأبي تمام من التخرج في فنه ، فذهب الى حمص حيث بدأ حياته الشعرية في مدح اسرة عُتبة بن ابي عبدالكريم الطائي ، وكان عبدالكريم شاعراً فقضى ابوتمام أيام تخرجه في جانبه . وكان في حمص ايضاً شاعر أبعد شهرة من عبدالكريم الطائي هو عبدالسلام بن رَغبان المعروف بديك الجن الحمصي[3] ، فأخذ عنه وتأثر به الى حد بعيد .

احتذىَ ابوتمام شعر ديك الجن فاكتسب منه الصِّناعة اللفظية وسار بها شوطاً بعيداً حتى نسبت اليه ، وحتى قال النقاد : ان ديك الجن يتبع مذهب ابي تمام[4] ، بدلاً من قولهم : ان ابا تمام يقتفي مذهب ديك الجن .

ولعل أبا تمام اكتسب من ديك الجن شيئاً آخر هو مذهبه العلَوي ، لأن عبدالسلام كان يتشيع تشيعاً حسناً ، ولكنه لم يتأثر بشعوبيته[5] ؛ وأخذ عنه أيضاً الإجادة في الرثاء[6] .

وفي حمص أيضاً انتسب أبو تمام — في الأغلب — إلى طيء بالولاء ، فقيل « ابو تمام الطائي » ، فان غير العربي إذا أسلم — كما هو معروف في التاريخ — انتسب بالولاء إلى قبيلة عربية ، أو بيت عربي ، أو أسرة عربية . ولقد كان ابو تمام مقيماً في حمص مكرماً لدى الطائيين بني عبدالكريم يأخذ من جودهم ومن أدبهم فكان من أجل ذلك خليقاً أن يُنيط بهم ولاءه ، ويؤثرهم على من

---

(١) ديوان ١٤٣ ، ديوان س ١ : ٣٩٣ .
(٢) اخبار أبي تمام ٢٤٦ .
(٣) غ ١٢ : ١٤٢–١٤٩ (بولاق) ؛ طبعة دارالكتب ١٤ : ٥١–٦٨
(٤) مثله ١٢ : ١٤٢ ، سطر ٦ .
(٥) مثله ، راجع ١٢ : ١٤٢ ، سطر ٣ .
(٦) العمدة ٢ : ١١٩ .

سواهم . أما رأي الأب شيخو[1] في رد نسبه إلى طيء فلا تقوم عليه حجة واحدة . إننا نقول ابو تمام الطائي كما نقول مسلم بن الوليد الأنصاري وابو نواس الحكَمي وبشار بن برد العُقيلي وكلهم غير عرب . أضف إلى ذلك قول ابن خلكان[2] : « وقد لُفقت له نسبة إلى طيء » . فأبو تمام إذن كان طائياً بالولاء لا طائياً بالنسب . ولعل افتخاره بطيء إنما هو بأمه الطائية[3] من جهة أمها أيضاً[4] . ثم ليس الإتيان بدليل على طائية أمه بأهونَ من الإتيان بدليل على طائيته هو .

• • •

لم يقتصر وجود أبي تمام في حمص على التعلم والتخرج فقط ، بل ترك أصدقاء هنالك كان يحن اليهم ؛ فله في آخر مدحة في سليمان بن نصر[5] :

فبحقي لِما خَصَصْتَ أبا الطيب مني بطَيِّب من سلامِ .
وثنائي ، من قبلِ هذا ومن بعدُ ، وشكري غضّ لعبد السلام .

فأما عبدالسلام فهو ديك الجن ، وأما ابو الطيب فابن عم ديك الجن[6] .

الرحيل الى مصر

هجر ابو تمام حمص إلى مصر ، في سنة ٢٠٨ أو ٢٠٩ للهجرة (٨٢٣م) في الأغلب « طلباً للمال » ، نرى ذلك ظاهراً بيّناً في جميع قصائده الأولى ، وخصوصاً ما كان منها في الفخر أو الوصف . لقد كان من الحق أن يذهب إلى بغداد لا إلى مصر ؛ سوى أنه في ذلك الحين لم يكن قد بلغ من الشعر رتبة

---

(١) شعراء النصرانية بعد الاسلام ٢٥٦–٢٥٧ .
(٢) وفيات الاعيان ١ : ٣٣٤ (مطبعة الوطن ١ : ٢١٤)
(٣) ديوان خ ٢٧١ ؛ راجع تحت ، ص ٣٩
(٤) ديوان خ ٤٧٢ .
(٥) ديوان خ ٢٨٢–٢٨٣ .
(٦) غ ١٢ : ١٤٢ سطر ١٥–١٦ .

تلفت الأنظار . ثم ان العمل الذي أخذ يقوم به في مصر لا يدل على أنه قصدها كشاعر ؛ فقد كان يومذاك حدثاً يسقي الماء في المسجد الجامع [1] ليكسب معاشه ؛ أفما كان باستطاعته أن يفعل ذلك في دمشق أو حمص ، أو في بلد أقرب من مصر ؟

يلوح لي أن أبا تمام أراد أن يبتعد عن أهله فقد أسلم وحده ، دون أهله ؛ فلم تكن حياته من أجل ذلك هادئة في دمشق ، وهو لم يكن في حمص بعيداً عن دمشق كثيراً ، فشد الرحال إلى مصر .

أبو تمام في المسجد

كانت المساجد في صدر الإسلام وما تلاه إلى زمن قريب مراكز للعلم فانتهز ابو تمام فرصة وجوده بالمسجد الجامع ، يسقي الماء ، ليزداد علماً : كان يلازم حلقات الأدب خاصة ، فاذا طلب أحد شربة ماء سقاه ثم رجع إلى مكانه الأول يستمع إلى إملاء الأديب أو مناقشة أصحابه . ولعل ذلك كان في السنوات الأولى من القرن الهجري الثالث ؛ وعمره يومذاك نحو عشرين عاماً . أما بيته :

وان الذي أخداني الشيب للتي رأيتُ ، ولم تكمُل لي السبع والعشر ؛

فلا يمكن أن يعني أكثر من أن شيبه بدأ قبل السابعة عشرة من عمره ؛ وليس فيه دليل على أنه قال القصيدة التي منها هذا البيت يوم بلغ هذه السن .

وبعد أن سقى ابو تمام الماء في جامع مصر ، واستقى العلم وفنون القريض ، ترك السقاية واتصل برجل حضرمي [2] يدعى عياش بن لهيعة [3] وأخذ بمدحه. ولكن عياشاً لم يزد على أن كان يعد أبا تمام ويمنيه ثم يمطله . ولا أرى وجهاً لرواية الصولي [4] : « قال ابو تمام : أول شعر قلته :

---

(١) مسجد عمرو بن العاص في الفسطاط (نزهة الالباء ٢١٣) .
(٢) حضرموت : مقاطعة في جنوبي جزيرة العرب ؛ وطيء ايضاً من عرب الجنوب .
(٣) هكذا يضبطها ابن خلكان ٢ : ٢٤٣ .
(٤) اخبار ابي تمام ١٢١ .

تقي جَمَحاتي ، لستُ طَوْعَ موئّبي ؛ وليس جنيبي ، إن عذلتِ ، بمصحبي[1] !

ومدحت به عياش بن لهيعة فأعطاني خمسة آلاف درهم » . ان هذه الرواية لا تتسق مع عتاب أبي تمام لعياش منذ اتصاله به ولا مع هجائه له في آخر الأمر . ومع ذلك فان نفراً رددوا هذه الرواية وقبلوا أن يكون عيّاش قد أجاز أبا تمام عليها[2] .

وما كاد العام الأول يمر على المدحة الأولى في عياش بن لهيعة حتى ضاق ابو تمام ذرعاً بعياش وقال يعاتبه[3] :

— الفطْر والأضحى قد انسلخا . ولي أملٌ ببابك صائم لم يُفطِرِ .
حَوْلٌ ، ولم يُنتَجْ نَداك ؛ وإنما تُتوقّع الحُبلى لتسعة أشهر[4] .

ولما لم يجد أبو تمام من عياش سوى مطل على مطل أخذ يهجوه هجاءً مراً ، ويعرّض بأصله ويَصِمُهُ بأنه ليس من العرب* . ثم هجاه أيضاً بعد موته[5] .

وأصبحت إقامة أبي تمام الآن في مصر ضَنْكاً ؛ لضيق ذات يده ولضيق مذاهبه في بلد نَشِبَتْ فيه العصبيّات (الفتن) :

بمصرَ ؛ وأي مأرُبَةٍ بمصر وقد شَعَبَت أكابرَها شَعوبُ[6] !

وذلك في الأعم الأغلب بين عامي ٢١٠ و ٢١١[7] هـ (٨٢٦ م) وما بعدهما .

---

(١) ديوان خ ٢٣–٢٥ . — تقى : اتقي ، احذري . جنيبي : الذي أحمله في جنبي (قلبي). — اذا لمتني وأردت أنا ان أسمع منك وأطيع لك فان قلبي لا يوافقني على ما أريد منه .

(٢) راجع مثلا ابو تمام الطائي للبهبيتي ٨١ .

(٣) ديوان خ ٣٩٥ — ٣٩٧ ؛ راجع اعيان الشيعة ١٩ : ٣٩٦ — ٤٠٣ .

(٤) الفطر عيد ينتهي به صيام رمضان ، والاضحى عيد يقع بعد سبعين يوماً من عيد الفطر — اما منزل عياش فكان بالاسكندرية (راجع الديوان خ ص ٥٠٣ البيت الثالث ؛ وص ٣٢٣ البيت الثالث عشر) .

(*) ديوان خ ٥٠٦ ، اعيان الشيعه ١٩ : ٤٠١ .

(٥) ديوان خ ٤٩٥ — ٤٩٦ .

(٦) خ ٤٧٣ ، اي مات اكابرها .

(٧) الطبري ٣ : ١٠٨٦ ، ١٠٩١ ، ١٠٩٤ — ١٠٩٩ .

وكان أهل أبي تمام قد حرَصوا على أن يَرْجع إليهم ابنهم . وأخذت نفس أبي تمام أيضاً تنازعه إلى الرجوع . غير أن كِبْرَ نفسه كان يأبى عليه أن يرجع وهو لمّا يَزَلْ فقيراً . وكيف يمكن أن يرجع من رحلة له فقيراً وهو الذي يقول :

ما آبَ من آبَ لم يظفرْ بحاجته ، ولم يَغِبْ طالب بالنُجْح لم يَخِبِ[1] :

غير أن الشاعر يعود إلى نفسه فيذكر حنان أمه وتشوقها إليه فيَوَدّ أن يطيعها في رغبتها ، ولكنه يرى استحالة ذلك ملء عينيه ، فيقول[2] :

وكم عَدَوية من سبي عمرو لها حسب إذا انتسبت حسيبُ ؛
لها من طَيّءٍ أمّ حصانٌ نجيبةُ معشر ، وأبٌ نجيب .
تمنى أن يعودَ لها حبيب مُنىً شطَطاً . وأين لها حبيب ؟

ثم يبدو حنينه أيضاً إلى دمشق وأصحابه فيها ؛ ويذكر ما مر عليه في مصر بعد خمسة أعوام وشهرين كانت كلها أسى وضنكاً ، ثم تعرض هو في أثنائها لهجر أهله وأسفهم ، ثم لبذل ماء وجهه ؛ وبعد هذا كله آب بالخيبة[3] .

نأيتُ فلا مالاً حويتُ ؛ ولم أُقمْ فأمْتَعَ ؛ إذ فُجّعت بالمال والأهل .
بخلتُ على عِرْضي بما فيه صَوْنُه رجاءَ اجتناء الجود من شجر البخل .
عصيت شَبا حزمي لطاعة جيرة دعتني إل أن أفتح القُفل بالقَفل
وأبسُط من وجهي الذي لو بذلتُه إلى الأرض ، من نعلي ، لما نُقبت نعلي .
وكان ورائي ، من صريمة طَيّءٍ ومعنٍ ووهبٍ ، عن أمامي ما يُسلي .

فلم يك ، ما جرّعت نفسي ، من الأسى :

ولم يك ، ما جرّعت قومي ، من الثكل .

---

(١) في نهاية الارب للنويري ٣ : ٩٥ ما أب من اب ...
(٢) ديوان خ ٤٧٢ .
(٣) ديوان خ ٤٢١–٢٢ ؛ راجع فوق ، ص٢٤ .
(٤) ديوان خ ٤٢٢ .

في هذه الأثناء كان أبو تمام قد هاجى نفراً من الشعراء في مصر وهاجَوْه. من هؤلاء شاعر اسمه يوسف السرّاج كان يحمل على أبي تمام لغموض شعره[1].

ولم يطُل مُقام أبي تمام بعد ذلك في مصر كثيراً، بل تركها آيباً إلى الشام، وهو لا يزال شديد التأثر بالمذهب العلوي. و لعل أبا تمام ظل في مصر إلى سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩ م) لأنه أدرك فيها مقتل عمير بن الوليد الباذغيسي الخراساني عامل مصر الذي قتل في ربيع الأول سنة ٢١٤ هـ في أثناء فتنة داخلية؛ وقد رثاه وحضر للتعزية به[2].

الرجوع الى الشام (سورية) فالعراق

رجع ابو تمام إلى الشام، ولعله لم يصل إليها قبل ٢١٥ – ٢١٦ هـ (٨٣٠م)، فسعى ليتصل بالمأمون، وكان المأمون يومذاك يتجول في الشام بعد أن خرج إلى حروب الروم وانتصر مراراً[3]، فلما دخل أبو تمام عليه مدحه[4] ولكن لم يظفر منه بما يؤمل ولا بأدنى مما كان يؤمل؛ بل بدر من الخليفة نحو الشاعر ما صرفه عن بغداد مرة واحدة. ان المأمون كان قد انقلب على آل علي، فأوغر صدْرَهُ أن يرى أبا تمام يمدحهم ويعرِّض ببني العباس[5].

طاف ابو تمام الآن في ما بين النهرين، وفي أرمينية، وفي شمال سورية؛ ولكنه قضى معظم أوقاته في المَوْصل.

---

(١) ديوان خ ٤٨٩، ٤٩١؛ الوساطة ١٨ – ١٩؛ ابو تمام الطائي ٨٥ – ٨٧.

(٢) الديوان خ ص ٣٥٩، ٣٦١، ٢٨٩ – ٢٩٠؛ خصوصاً ص ٣٦١ س ٣ والطبري ٣: ١١٠١.

(٣) غزا المأمون ارض الروم عدة مرات بين ٢١٥ و ٢١٧ هـ (الطبري ٣: ١١٠٣، ١١٠٤، ١١٠٩).

(٤) لعل اباتمام لقي المأمون في دمشق؛ اما القصيدة التي مدحه بها فهي: د من ألم بها فقال سلام – ديوان خ ٢٧٩؛ وفي ابياتها انها اول ما قاله الشاعر بعد رجوعه من مصر.

(٥) ديوان خ ١٦١ – ١٦٦،

في خراسان

بعد موت المأمون في سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣ م) أمِنَ أبو تمام وكَثُرَتْ قصائده وبزغ نجمه. فلما سمع به المعتصم حمله إليه فقضى ابو تمام عنده مدة لم يجد في أثنائها لديه ما يضارع طموحه فتركه وولّى وجهَه شطْرَ خُراسانَ ليمدح واليَها عبدَالله بن طاهر بن الحسين، وقد اشتدّت الفتن فيها من آثر بابَكَ الخُرّميّ. وتوجّه أبو تمام من العراق نحو نيسابور. وفي طريقه مر بقُومَس ونزَل فيها عند صديق له هو عبدالله الدامغاني[1]. ثم ان أبا تمام انتهز فرصة إقامته بنيسابور، مع عبدالله بن طاهر، فاتصل بالقائد أبي دُلَف العِجْلي، وبالقائد حَيْدر بن كاوس الأفشين[2]، وبالقائد أبي سعيد محمد بن يوسف الثَغْري، وسوى هؤلاء كجعفر بن دينار الطائي. وقد بقي أبو تمام في خراسان إلى أواخر سنة ٢٢٢ هـ حينما تركها عبدالله بن طاهر قادماً إلى سامرّا[3] ومعه الثائر بابك الخرّميّ فوصل إليها في صفر من سنة ٢٢٣هـ[4]، وقد صَحِبَ عبدَالله بنَ طاهر في مقدمه على سامرا أبو تمام والقائد الأفشين. وفي سامرا أدخل المعتصمُ الشعراءَ على الأفشين ليمدحوه، فمدحه أبو تمام بقصيدته[5]:

بَذّ الجِلادُ البَذّ فهْوَ دَفينُ؛ ما إنْ به إلاّ الوحوشُ قَطينُ[6].

---

(١) ياقوت ٤: ٢٠٣.

(٢) وفي رواية خيذر (شرح التبريزي ٢: ٧٢).

(٣) سامرا مدينة على أربعين كيلومتراً شمال بغداد بناها المعتصم وجعلها معسكراً لجنده الاتراك ثم اتخذها عاصمة.

(٤) انظر تحت، قصة بابك، ص ٥٠

(٥) ديوان خ ٣٢٦ – ٣٢٨.

(٦) بذ: غلب، تغلب على. الجلاد: القتال، الحرب. البذ (بالذال المعجمة وبالدال المهملة أيضاً): معرب بت: الصنم، وهو هنا مكان فيه صنم كبير لبوذا كان في جبل عال منيع، وكان بابك الخرمي قد اتخذه معقلا (راجع القاموس ١: ٢٦٧، ٣٥٠). – يقول أبو تمام: تغلب العرب بالجلاد (بالحرب) على جبل البذ وهدموه حتى صار مدفوناً تحت أنقاضه، ولم يبق به قطين (ساكن) الا الوحوش (أي أصبح مهجوراً).

في العراق وبلاد الروم (آسية الصغرى)

في منتصف سنة ٢٢٣ هـ (قبيل منتصف ٨٣٨ م) تجهّز المعتصم لمحاربة الروم متّجهاً نحو عمورية ، وكان معه الأفشين وأبو تمّام . وبعد الاستيلاء على عمورية وإحراقها (رمضان ٢٢٣ هـ — آب ٨٣٨) عاد المعتصم إلى سامرّا فأنشده أبو تمّام قصيدته السائرة على وجه الدهر : « السيف أصدق إنباء من الكتب »[1] ، وذلك في مطلع سنة ٢٢٤ هـ أو في آخر سنة ٢٢٣ .

هنا يعترضنا أمران أولهما زمن ذهاب أبي تمام إلى الحج ، فان أبا تمام يقول في ديوانه انه حج مع أبي سعيد الثغري[2] ، ونعلم من موضع آخر في الديوان أن أبا سعيد حج حجة يغلب على الظن أنها كانت بين ٢٢٣ و ٢٣٠ ، وهي على الأغلب في عام ٢٣٠ هـ . ثم نحن لا ندري إذا كانت حجة أبي سعيد هذه هي التي حج في عامها أبو تمام ، أم تلك غيرها ، فيكون الشاعر إذن قد حج مرتين .

والأمر الآخر زمن تأليف « ديوان الحماسة » ، وجُل ما نعلمه « أن الثلج اعترضه في همذان بفارس في أثناء ذهابه إلى مديح عبدالله بن طاهر » ، وقيل بل في أثناء رجوعه ، فاشتغل بتأليف هذا الكتاب ريثما يذوب الثلج ويستطيع الشاعر أن يتابع مسيره . وعلى كل فان ذلك كان في أواخر سني أبي تمام أيضاً .

وفي هذه الأثناء كان الشاعر قد نال حظوة عند المعتصم وعند أمراء البلاد ورجال الدولة : كأحمد بن أبي دؤاد ومحمد بن عبدالملك الزيات وجعفر الخياط القائد وغيرهم .

* * *

لم يألف أبو تمام الاستقرار في بلد من البلدان مدة طويلة . فما أن هدأ قليلاً في سامرّا ، بعد فتح عمّورِيَةَ ، حتى عاد سِيرتَهُ من التّطْواف بين سنتي

---

(١) راجعها في المختارات .
(٢) ديوان خ ٤٢٣ — ٤٢٤ .
(٣) ديوان خ ٢٩٣ .

٢٢٥ و ٢٢٩ للهجرة (٨٤٠ – ٨٤٤ م) . زار أبو تمام في تلك الأثناء حُوران وحِمْص ، ثم عاد إلى سامرّا في سنة ٢٢٦ هـ ليمدح المعتصم بعد إحراق الأفشين سنة ٢٢٦ أيضاً[١] . وفي هذه الحِقبة اتصل أبو تمام بأبي المغيث موسى بن ابراهيم الرافقي ، والي دمشق من قِبَلِ الخليفة المعتصم[٢] . ويتساءل محسن الأمين[٣] عما إذا كان أبو تمام قد حضر بنفسه إلى دمشق أو أنه أرسل إلى أبي المغيث قصيدته[٤] :

أقشيبَ رَبْعِهِمُ ، أراكَ دَريسا وقِرى ضيوفِك لَوْعَةً ورَسيسا[٥]

من الموصِل . « ومكث أبو تمام مدة ينتظر معروف أبي المغيث موسى بن ابراهيم فلم يدرك منه رسولاً ولم يَبْلُغْ مأمولا »[٦] ، فأخذ يمدحه مرة ويعاتبه أخرى . بعدئذ هجاه ولكن عاد فمدحه[٧] .

وفي هذا الدور أيضاً – فيما يبدو – اتصل أبو تمام بمالك بن طَوْق التَغْلَبيّ يوم كان مالك يقاتل الثائرين على الخلافة في بادية الفرات الجَزَريّ (الفُرات الأعلى) . ويبدو لنا أيضاً أن أبا تمام ظل متّصلاً بمالك بن طوق إلى ما بعد عزله عن الجزيرة ، جزيرة ابن عُمَرَ[٨] .

وكذلك يبدو أن أبا تمام لَقِيَ البحتري في هذا الدور . كان أبو تمام يومذاك شاعراً ملء السمع والبصر مشهوراً ، وكان البحتري لا يزال حديث السن

---

(١) راجع ديوان خ ١٥١ – ١٥٥ .
(٢) أمراء دمشق في الاسلام ٨٩ ، راجع ١٢٦ .
(٣) أعيان الشيعة ١٩ : ٣٨٨ .
(٤) ديوان خ ١٧٥ – ١٧٨ .
(٥) يا مسكنهم الجديد ، أراك قد أصبحت دريساً (مدروساً ، خراباً) وأرى أن قرى ضيوفك (حظ زائريك، ضيافتهم) لوعة (حرقة في القلب وألم من حب أو هم أو مرض) ورسيسا (حمى من لوعة الحب) = كانت ديارهم عامرة زاهرة فامحت وأصبحت تحزن من يراها.
(٦) هبة الايام ١٦٧ .
(٧) أعيان الشيعة ١٩ : ٣٧٨ – ٣٩٦ .
(٨) أعيان الشيعة ١٩ : ٣٧٨ ، ٣٨٣ .

مغموراً[1] . وكان اللقاء اتفاقاً في حمص عند القائد أبي سعيد محمد بن يوسف. الثغري في حديث طويل هو أكثر اتصالاً بالبحتري وشاعريته منه بأبي تمام[2] ولعل ذلك كان في بعض شهور سنة ٢٢٦ هـ (٨٤١ م) .

وبعد عام أو بعض عام رأينا أبا تمام من جديد في سامرا يعزّي الواثق بأبيه المعتصم ويهنئه بالخلافة بقصيدته الميمية[3] :

ما للدموعِ تَروم كلَّ مَرام[4] ، والجفنُ ثاكلُ هجْعَةٍ ومَنامِ !

ويبدو أن أبا تمام حجّ بعد ذلك ثم بقي نحو عامين في العراق . إلا أن كثرة تطوافه في الأرض ، إلى جانب انغماسه في الشراب ، والملذّات أيضاً ، كانا قد نَهكا جسمه — قبل أن تتقدّم به السن كثيراً — فآثر أن يُخلِدَ إلى شيء من الراحة بعيداً عن مشاغل الدنيا وعن إرهاق النفس بالمدائح . في ذلك الحين تولّى بريد الموصل :

كان بين أبي تمام وبين الحسن بن وهب صداقة وثيقة وإخاء خالص . رقي الحسن بن وهب في المناصب وظلت الصداقة والمنادمة والأحماض* بينهما على حالها . ولما سئم أبو تمام تكاليف الحياة رغب إلى صديقه في أن يعينه على اعتزال الكفاح في الحياة . فعرضُ الحسنُ بن وهب على ابي تمّام ان يُولّيَه مَنْصِباً فاختار أبو تمّام أن يتولّى بريد المَوْصل[6] ، لأنه كان قد قضى في الموصل زمناً

---

(١) هنالك خلاف على لقاء أبي تمام بالبحتري لأول مرة ، وخلاف على ما كان في هذا اللقاء وما أعقب ذلك اللقاء (راجع غ ١٨ : ١٦٩ ؛ وفيات ٢ : ١٣١ ، مطبعة الوطن ٠٣ : ٩٧ — ٩٨ ؛ أخبار البحتري ٥٦ ، ٦٣ — ٦٥) .

(٢) راجع أخبار أبي تمام ١٠٥ ؛ هبة الايام ١٣ وما بعدها ؛ أخبار البحتري ٦٣ — ٦٤ ؛ أعيان الشيعة ١٩ : ٤٣٧ وما بعدها .

(٣) ديوان خ ٢٧٥ — ٢٧٩ .

(٤) ما للدموع تهمي غزيرة ، في كل جهة (وفي كل حين) .

(٥) الاحماض : المزاح بألفاظ مكشوفة . راجع أخبار أبي تمام ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢١٠ ، ٢٦٩

(٦) أخبار أبي تمام ٢٧٢ . — كان البريد لنقل الرسائل والاشياء والاشخاص مما يتعلق بأعمال الدولة ، كما كان رجال البريد (الموظفون في ديوان البريد) ينقلون أخبار البلاد والناس الى الخليفة .

أيام تخفّيه من المأمون. وكانت ولاية أبي تمام على بريد الموصل ولاية شرف يستجم فيها أبو تمام ويقبض منها راتباً ، مع العلم بأن أعمال هذا المنصب في الأصل كثيرة متعبة . غير أن أبا تمام لم يمكث في هذا المنصب أكثر من عامين اثنين ، من أوائل سنة ٢٢٩ هـ (أواخر عام ٨٤٣ م) إلى وفاته[١] .

وفـــاته

اختلف الرواه في سنة وفاة أبي تمام[٢] ، كما اختلفوا في سنة مولده ، اختلافاً كبيراً بين سنة ٢٢٨ وسنة ٢٣٢ للهجرة . ويبدو أن أبا تمام قد توفّي — في أوثق الأقوال وأحسنها اتساقاً مع حوادث حياته — في المحرم من سنة ٢٣٢ (أيلول ٨٤٦) ، وهو يتولّى بريد الموصل[٣] ، وعمره نحو ثلاث وأربعين سنة .

ودفن أبو تمام في الموصل[٤] خارج الميدان على حافّة الخندق ؛ وتقول العامة : هذا قبر تمام الشاعر[٥] . وقد بنى أبو نهشل بن حُميد الطوسيّ قبة عليه[٦] . أما اليوم فان رفاته في حديقة البلدية في ضريح ضخم[٧] .

ورثى أبا تمام نفر كثيرون منهم ديك الجن أستاذه والبحتري تلميذه ؛ ومنهم صديقاه وممدوحاه محمد بن عبدالملك الزيات والحسن بن وهب ، وصديقه الشاعر علي بن الجهم وسواهم[٨] .

---

(١) راجع أخبار أبي تمام ٢٧٢ — ٢٧٣ ؛ ياقوت ٢ : ٨ ، راجع ١ : ٤٢٠ ؛ وفيات ١ : ٣٣٧ ؛ ، مطبعة الوطن ١ : ٢١٦ ، ٢١٧ هبة الايام ٥٣—٦٣ ؛ أعيان الشيعة ١٩ : ٣٥٧—٣٦٧ .

(٢) أخبار أبي تمام ٢٧٢—٢٧٣ ؛ تاريخ بغداد.... أخبار البحتري (ص٦٦) سنة ٢٣١ هـ ؛ وفيات (وستنفلد) رقم ١٤٦ ؛ مطبعة الوطن ١ : ٢١٧ ؛ ١ : ياقوت ٢ : ٨ ؛ هبة الايام ٤٩ ؛ أعيان الشيعة ١٩ : ٣ ، راجع ١٢ .

(٣) ياقوت ١ : ٤٢٠ ، ٢ : ٨ ؛ أعيان الشيعة ١٩ : ٣ ، راجع ٢ ٣٦ الخ .

(٤) ياقوت ١ : ٤٢٠ ؛

(٥) وفيات ١ : ١٥٣ ، ٣٣٩ ؛ مطبعة الوطن ١ : ٢١٧ ، السطر ٢١ .

(٦) هبة الايام ٤٩ ؛ وفيات ١ : ٣٣٩ .

(٧) هبة الايام ٤٩ ، حاشية ٥ .

(٨) العمدة ١ : ٤٣ ؛ أخبار أبي تمام ٢٧٥ — ٢٧٩ ؛ وفيات (آخر الترجمة)

صفاته واخلاقه الخاصة

ليس لدينا ما يدل على صفات أبي تمام سوى قول ابن خلكان[1] : « كان أسمر طويلاً فصيح الكلام فيه تمتمة بسيطة » . وقد نقلها عنه كثيرون ؛ وإلاّ جملة للأنباري : « وكان موصوفاً بالظّرف وحسن الأخلاق وكرم النفس » . ثم ليس في ديوانه ما يناقض هذه الأحكام .

من أجل هذه التمتمة اليسيرة اشترى له أبو سعيد الثغري غلاماً أديباً فصيحاً اسمه الفتح بثلاثمائة دينار ليلقيَ له قصائده . ولكننا نعلم أنه كثيراً ما كان يلقي قصائده بنفسه . وقيل إنما كان إنشاده قبيحاً[2] وزاد ابن رشيق فقال « وكان في حبيب حبسة شديدة إذا تكلم ... » فقال فيه مخلد بن بكار الموصلي[3] .

يا نبي الله في الشعر ويا عيسى بن مريم ،
أنت من أشعر خلق الله ما لم تتكلمْ !

أما أخلاقه فكانت أخلاق شاعر عباسي ؛ غير أنه لم يكن متهتكاً ، بل كان يأتي ملذاته في ستر[4] .

آلـــه

كان أبو تمام مُرزّئاً : مات نفر من أهله ، من أخوة وأولاد له ، في حياته . وقد مات نفر من هؤلاء في عام واحد[5] :

تتابع في عامٍ بَنِيّ[6] وإخوتي ، فأصبحت إن لم يُخْلِفِ[6] اللهُ مُفْرَدا.

أما أبواه فلا نجد إشارة إليهما في ديوانه إلا أن تكون الرسالة التي جاءت

---

(١) وفيات الاعيان ١ : ٣٣٩ .
(٢) الاغاني ١٨ : ٤٧ .
(٣) العمدة ١ : ٧٠ ، ١٨٤ – مخلد مضبوطة في اخبار ابي تمام بضم الميم وفتح الخاموتشديد اللام المفتوحة (ص ٤٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٧٢) .
(٤) راجع اعيان الشيعة ١٩ : ١٩ وما بعدها ففيها اشارات كثيرة وشواهد على اخلاقه الشخصية .
(٥) ديوان خ ٣٦٣ .
(٦) ان لم يخلف الله : ان لم يرزقني ولداً من جديد .

إليه موشحةً بالسواد نَعياً لأحدهما[1]. وكذلك نَعرِفُ أخاً له كان اسمه سَهْماً[2]. ثم ان هنالك في ديوانه[3] مَرثِية عنوانها «وقال في أخ له وحضر وفاته» تدل على أن الشاعر قالها في أخ له من النسب لا من الصداقة. ولكن ليس فيها ما يدل على أن هذا الأخ المرثيّ كان سهماً أو أخاً ثانياً له.

وتزوج أبو تمام امرأة توفيت وشيكاً صغيرة السن فرثاها[4]. وكذلك كانت له جارية، بمعنى الزوج لا بمعنى الولد، ماتت في حياته أيضاً[5]. وكان لأبي تمام أولاد لا نعلم من أي الزوجتين هم.

توفي لأبي تمام ابن اسمه محمد رثاه رثاءً يدل على أنه لم يكن له آنذاك ولد غيره[6]. وهنالك في الديوان مرثية تعد واحداً وعشرين بيتاً في ابن له يكنّيه أبا عليّ ويذكر أنه كان يوم توفي وحيداً له وأنه قد بلغ مبلغ الشباب. ومطلع هذه المرثية[7]:

كان الذي خِفْتُ أن يكونا ... أنا إلى الله راجعونا.
أمسى المرجّى أبو عليّ ... مُوَسَّداً في الثرى يمينا،
حين انتهى واستوى شبابا ... وحقق الرأي والظنونا.

ويبدو أن ابنه المرثي بهذه القطعة هو غير ابنه المرثي بالقطعة السابقة. يذكر الشاعر أن ابنه المسمى أبا علي توفي بعد مرض، بينما هو لم يتكلم عن المرض في المرثية الأولى بل تكلم عن شماتة الناس به. ثم ان لأبي تمام ابناً آخر اسمه تمام عاش بعده مدة[8]، وهو الذي يتكنى به شاعرنا.

---

(١) ديوان خ ١٤٣ = شرح التبريزي ٢ : ٦٩.
(٢) ديوان خ ٣٤٣، البيت الثالث. هبة الأيام ١٢٢. اخبار البحتري ١٤٦.
(٣) راجع ديوان خ ٣٩٢.
(٤) ديوان خ ٣٥٦.
(٥) ديوان خ ٣٨٨ – ٣٨٩.
(٦) ديوان خ ٣٦٣.
(٧) ديوان خ ٣٩١ – ٣٩٢.
(٨) اخبار ابي تمام ٢٦١، ٢٧٣.